على الغلاف

72 عاماً على النكبة فلسطين عصيّة على الاقتلاع

ذكرى النكبة بين الأمس واليوم

منير شفيق *

نكبة فلسطين كانت نكبة للعرب والمسلمين، وأحرار العالم، وليست نكبة الفلسطينيين وحدهم، أو نكبة قُطر ما من أقطار العالم. وذلك لأنّ فلسطين، وفيها القدس وما حولها، تتعدّى نكبة في قطر ما، أو لشعب ما. ففلسطين وقدسها جِزعان لا يتجزّآن من الوطن العربي والعالم الإسلامي. ولأنّ الكيان الذي كان الوجه الآخر لنكبة فلسطين مثّل ويمثّل، جزءاً شريكاً في الاستعمار العالمي والإمبريالية العالمية، فيما جعل من قضية فلسطين قضية لأحرار العالم وشعوبه. بل كان من نتائج إقامة الكيان الصهيوني في فلسطين أن تمكّنت الصهيونية العالمية من بسط نفوذٍ هائل التأثير في أميركا وأوروبا؛ وهذا بُعدٌ سيكون له ما بعده في مستقبل الغرب ومصيره.

الخصوصية الثانية لقضية فلسطين من بين كل قضايا التحرّر العالمية ضد الاستعمار والإمبريالية والعنصرية، كونها قضية اقتلاع شعب من وطنه، وإحلال مستوطنين

> **شكّلت مرحلة التسعينيات انتكاسة لليسار العالمي بانهيار المعسكر الاشتراكي، كما شكّلت تراجعاً للمقاومة الفلسطينية ولحركة التحرّر العربي**

صهاينة مكانه. فقد مثّلت النكبة هذه السمة، حيث اقتلع ثلثا الشعب الفلسطيني تقريباً، من بيوتهم وأراضيهم وقراهم ومدنهم، ليصبح أغلبهم لاجئين خارج فلسطين، وقلّة داخل الضفة الغربية وقطاع غزة، وحيث قام كيانٌ للمستوطنين في بيوتهم المفروشة وأراضيهم المزروعة وقراهم ومدنهم المعمورة، وقد ساوى 78% من فلسطين، عام النكبة 1948، بما فيها غرب القدس، ثم أكمل احتلال كلّ فلسطين عام 1967 مع سيناء والجولان. وقد فرض الاقتلاع الجديد نزوح أكثر من سبعمئة ألف فلسطيني، ثم استمرّت سياسات التهجير، خصوصاً من القدس، ومصادرة الأراضي والبيوت.

إنها حرب وجود يشنّها الكيان الصهيوني، وخطته اقتلاع كلّ الفلسطينيين وتهويد كلّ فلسطين. وجاء قرار الكنيست حول قومية الدولة اليهودية، ليكون الهدف الذي تحقّقه تلك الخطة. ولهذا، ألقيت في سلّة المهملات كلّ القرارات الدولية الصادرة عن هيئة الأمم المتحدة، وكلّ ما طُرح من حلول للقضية الفلسطينية، بما فيها حلّ الدولتين، مروراً باتفاق أوسلو، وصولاً الآن إلى إعلان دونالد ترامب ما سمّاه «صفقة القرن»، وما اتخذه من قرارات، وأخطرها إعلان القدس عاصمة للكيان الصهيوني، وشرعنة المستوطنات. وذلك بهدف الوصول، خطوة بعد خطوة، إلى الاقتلاع الكامل للشعب الفلسطيني، والاستيلاء الكامل على فلسطين، وتزوير التاريخ ومحو الآثار الحضارية أو تشويهها، لتأكيد وهم «الحق الديني والتاريخي» للوجود الصهيوني في فلسطين، وفقاً للسردية الصهيونية الملفقة.

لذلك، كلّ من حاول أن يجد حلاً للقضية الفلسطينية، ولو بأعلى مستويات الغبن للشعب الفلسطيني، ولحقوقه وحقوق الأمة العربية والإسلامية في فلسطين، كان يقدّم تنازلاً مجانياً يخدم في نهاية المطاف المشروع الصهيوني في الاقتلاع الكامل والإحلال الكامل. أما اليوم، فلم يعد مطروحاً حتى في الوهم، كلّ ما صدر من قرارات دولية، أو قُدّم من حلول أو جرى من مفاوضات أو «اتفاقات». فلم يعد مطروحاً، اليوم، غير مواصلة الصراع والمقاومة ضد الكيان، مع تأكيد ثوابت القضية الفلسطينية في تحرير كل فلسطين، من النهر إلى البحر ومن الناقورة إلى أم الرشراش. ولم يعد مطروحاً من جانب الكيان الصهيوني وأميركا، غير مواصلة سياسة الاقتلاع الكامل والاستيلاء الكامل والتهويد الكامل. أمّا كل حديث عن العودة إلى المفاوضات، فهو الغطاء الراهن لتمرير ما هو مطروح من جانب الكيان الصهيوني وأميركا، وهو ما يترجم الآن في الضفة الغربية في ضم مستوطنات، وأراضٍ جديدة، وفي القدس عبر التهويد، وسياسات السيطرة على المسجد الأقصى، بهدف اقتسام الصلاة فيه، وشلّ حرس دائرة الأوقاف، ومنع ما أمكن من وصول المصلين إليه.

يحدث هذا كله، الآن، في موازين قوى ليست في مصلحة الكيان الصهيوني، وذلك على غير ما كانت الحال في مرحلة النكبة، أو ما بعدها من مراحل. كيف؟

ما بين عامي 1918 ـ 1948، أي مرحلة الهجرة الاستيطانية الصهيونية، وحرب 1948، كانت فلسطين تحت الانتداب البريطاني الذي قمع مقاومات الشعب الفلسطيني وثوراته، وجرّده من السلاح، وأمّن الهجرة الصهيونية في ظلّ مئة ألف جندي بريطاني، وكبّل دول التجزئة العربية، بعدما قسّمها وسيطر عليها وشلّها شلّاً كاملاً. وكان قد سيطر على تركيا وإيران، والعالم الإسلامي عموماً، فيما اتفقت كل الدول الكبرى، بما فيها الاتحاد السوفياتي، على إقامة الكيان الصهيوني ودعمه.

في المرحلة الممتدة من عام 1950 إلى عام 1967، كان الكيان الصهيوني متفوّقاً عسكرياً على كل الجيوش العربية، بالرغم من انتصارات سياسية حققتها حركة التحرّر العربي ضد الاستعمار القديم، إلّا أنها حوصرت بالهيمنة الأميركية التي أجهضت وحدة مصر وسوريا، وعزّزت الجيش الصهيوني لإنزال هزيمة عسكرية قاسية بمصر وسوريا والأردن، عام 1967؛ واحتلال سيناء والجولان كلّهما، والضفة الغربية وقطاع غزة.

باختصار، اتّسمت هذه المرحلة بميزان قوى في مصلحة الكيان الصهيوني وأميركا، والذي تفاقم أكثر بخروج مصر من الصراع من خلال المعاهدة المصرية ـ الإسرائيلية عام 1979. وكاد ميزان القوى يتعدّل نسبياً بإطاحة نظام الشاه في إيران، وقيام الثورة الإسلامية التي سرعان ما حوصرت بالحرب العراقية، على مدى تسع سنوات. وزاد الطين بلّة مع انهيار الاتحاد السوفياتي عام 1991، وعقد اتفاقية أوسلو عام 1993.

شكّلت مرحلة التسعينيات انتكاسة لليسار العالمي بانهيار المعسكر الاشتراكي، وبالإصلاحات ذات الطابع الرأسمالي في الصين، كما شكّلت تراجعاً للمقاومة الفلسطينية ولحركة التحرّر العربي. ولكنّها شكّلت في الآن نفسه صحوة إسلامية عالمية من حيث إقبال الناس على الصلاة والمساجد، وانتقال إيران إلى تعزيز قدراتها، والسير على طريق النهوض مع دعم موازٍ لقوى المقاومة الإسلامية، حزب الله في لبنان، وحماس وحركة الجهاد في فلسطين. مع فاتحة العقد الأول من القرن الواحد والعشرين، تهاوى النظام العربي، بعد احتلال أميركا للعراق عام 2003، ولكن في الآن نفسه انتصرت المقاومة الإسلامية في لبنان، بدحر الاحتلال عن جنوبه عام 2000، ثم الانتصار في حرب تموز / يوليو 2006. وتبعه انتصار المقاومة في حرب 2008 / 2009 في قطاع غزة. وعلى المستوى العالمي، تمكّن فلاديمير بوتين، في الفترة نفسها، من تحويل روسيا إلى دولة كبرى من جديد، فيما قفزت الصين قفزات هائلة في تطوّرها الاقتصادي والعسكري والعلمي والتقني، ما حوّل النظام العالمي، ولا سيما مع أزمة العام 2008 التي أطاحت العولمة، إلى حالة متعدّدة القطبية، على حساب ما اعتبره البعض النظام العالمي الأحادي القطبية بزعامة أميركا.

وجاءت العشرية الثانية لتكرّس ما ورثته من العشرية التي سبقتها، لتدفع إلى الأمام، مع نصفها الثاني، موقع إيران كقوة إقليمية وبشهادة دولية، عبر الاتفاق النووي، إلى جانب ما تكرّس من تطوير لقدرات حزب الله العسكرية، وكذلك بالنسبة إلى المقاومة في قطاع غزة، حيث انتصرت في حربي 2012 و 2014، وأصبحت تمتلك صواريخ تصل إلى ما بعد تل أبيب، وتطلق مسيرات العودة الكبرى، وترسل طائرات اللهب الورقية، والبالونات، لتحرق آلاف الدونمات في المستوطنات من حولها.

وعلى المستوى العالمي، أصبحت روسيا في السنوات الخمس الأخيرة فرس رهان مع أميركا في سباق التسلّح، إن لم تسبقْ في أكثر من مجال، ولا سيّما الصواريخ البالستية ما فوق سرعة الصوت بدرجات. وأمّا الصين، فراح تطوّرها الاقتصادي يُقارب أميركا من حيث الإنتاج الكلّي، ويتهدّده بالتفوّق عليه قريباً، إلى جانب تقدّم هائل في تكنولوجيا الاتصالات والذكاء الاصطناعي، الأمر الذي جعل نهاية العشرية الثانية تنذر بانتقال الوضع العالمي إلى مواجهة أميركية ـ صينية حبلى بأشد الأخطار والاحتمالات، وذلك جنباً إلى جنب مع تصاعد المواجهة الأميركية ـ الإيرانية (ومعها محور المقاومة) إلى مستوى سيقرّر مصير قضية فلسطين، والوضع الإقليمي لعشرات السنين المقبلة. وهذا يحدث لأول مرة منذ نهاية الحرب العالمية الأولى، والتي تقرّر بعدها تكريس السيطرة العالمية للغرب، كما تقرّر إقامة الكيان الصهيوني في فلسطين، وكانت النكبة التتويج الأول له كذلك.

يجب أن يضاف هنا أنّ تركيا لم تعد محسوبة في ميزان القوى لحساب الكيان الصهيوني.

صحيح أنّ الوضع الراهن راح يفرز ظواهر تبدو متناقضة مع ما حدث من تغيّر نوعي في ميزان القوى، عالمياً وإقليمياً، في غير مصلحة أميركا والكيان الصهيوني؛ فمن هذه الظواهر، التهافت المرضي لبعض الدول العربية (السعودية، والإمارات والبحرين)، على التطبيع مع الكيان الصهيوني، ومعاداة المقاومة الفلسطينية، إضافة إلى ما يجري من خطوات أميركية ــ صهيونية مثل ضم القدس للكيان واعتبارها عاصمة له، ومثل الإجراءات التي تعدّ لضم الأغوار وبعض المستوطنات، أو إعلان ضمّ الجولان، وما يسمى «صفقة القرن». فهذه الظواهر تعطي صورة للوضع لدى البعض، بأنّ القضية الفلسطينية على طريق التصفية، والوضع العام على طريق الانهيار. ولكن هذه الصورة ظاهرية وخادعة، ولا تعبّر عن ميزان القوى الحقيقي. فما اتّخذ ويُتّخذ من خطوات أميركية صهيونية، يتم تحت ما هو قائم من احتلال، ولكنّه قائم على أرجل خشبية، سرعان ما سيتهاوى عندما تنتهي سياسات محمود عباس المناهضة للانتفاضة، وينتهي التنسيق الأمني الذي لا احتلال من دونه. أمّا تهافت المطبّعين، فتعبير عن انهيار سياسي وأخلاقي وضعف، ولا يحمل تعبيراً عن مستقبل، فهو ينتظر ما سيحدث من صراع أميركي ـ إيراني، ومن حروب صهيونية خاسرة مع المقاومة.

وبكلمة، إنّ أهمّ ما يجب أن يُرى هذا العام في ذكرى النكبة، أنّ موازين القوى التي صنعت النكبة وما بعدها، هي غير موازين القوى الراهنة التي تهبّ رياحها في غير مصلحة صانعي النكبة.

* كاتب ومفكر فلسطيني

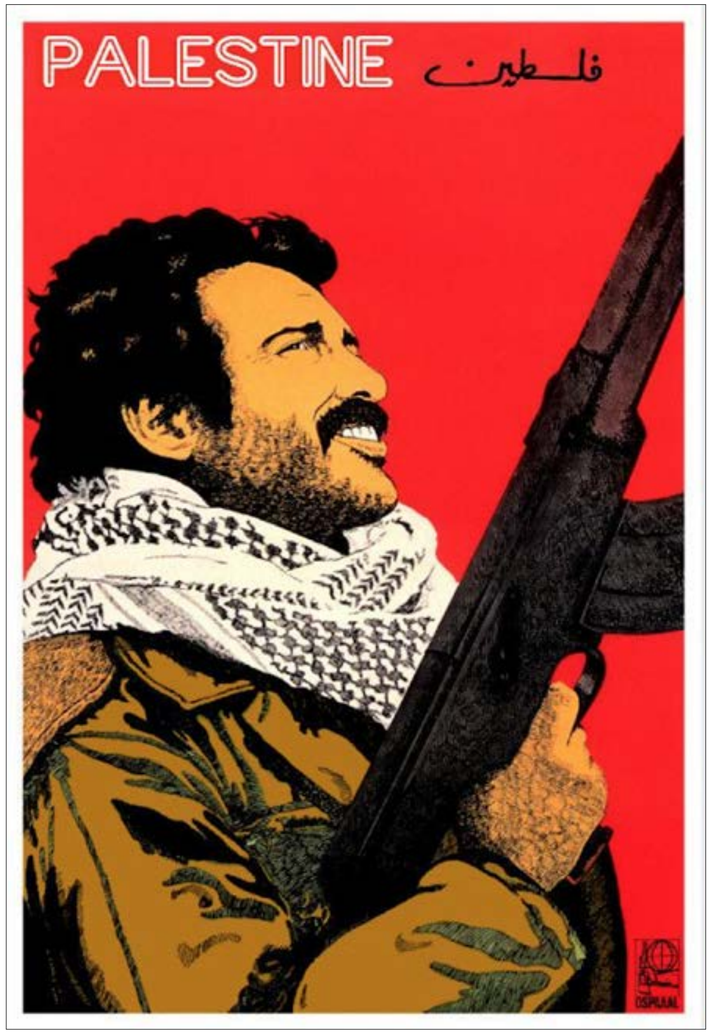

ملصق كوبي تمجيداً للكفاح المسلّح في سبيك تحرير فلسطين

القلعة العاجزة

وليد شرارة

قبل زيارته الكيان الصهيوني، حرص وزير الخارجية الأميركي، والصهيوني عقائدياً، مايك بومبيو على الإعلان في 22 نيسان/إبريل الماضي أن ضم الضفة الغربية «شأن إسرائيلي». وكانت «صفقة القرن» العتيدة قد منحت الصهاينة حق ضم القدس والكتل الاستيطانية في الضفة الغربية، ومناطق أخرى فيها ذات أهمية استراتيجيه بالنسبة «لأمن» الكيان. هي مرحلة جديدة من «حرب المئة العام على فلسطين»، وهو العنوان الذي اختاره المؤرخ الفلسطيني رشيد الخالدي لكتابه المرجعي الصادر هذه السنة بالانكليزية عن الصراع الدائر بين المشروع الاستعماري الاستيطاني الصهيوني والشعب الفلسطيني منذ أكثر من قرن. يراجع خالدي المحطات الستة الأبرز في تاريخ هذا الصراع، أو الحروب الستة المتتالية، من وعد بلفور الى التطهير العرقي في 1948 وعدوان 1967 واجتياح لبنان في 1982 والحرب على الانتفاضة الأولى بين 1987 و1995 والحرب المستمرة منذ اندلاع انتفاضة الأقصى العام 2000 حتى اليوم. والمشاركة المركزية والمباشرة للقوة الغربية المسيطرة، بريطانيا بداية ومن ثم الولايات المتحدة، في جميعها. يذكر الخالدي بتصريح آرثر جيمس بلفور سنة 1917 بأن الحكومة البريطانية في فلسطين لم «تقترح حتى التشاور مع السكان الحاليين في البلاد لمعرفة رغباتهم»، وبأن القوى العظمى كانت ملتزمة بالصهيونية: فالصهيونية، يقول بلفور، «سواء كانت محقة أو مخطئة، جيدة أو سيئة، تضرب بجذورها في التقاليد التي طال أمدها عمراً، وفي الاحتياجات الحالية، وتمثل أمل المستقبل». وبعد مرور مئة عام، اعترف الرئيس دونالد ترامب بالقدس عاصمة لإسرائيل، قائلاً لبنيامين نتنياهو: «أزحنا موضوع القدس عن الطاولة، لذا فلم يعد علينا أن نتحدث عنها... لقد فزت بنقطة واحدة، وسوف تتخلى عن بعض النقاط في وقت لاحق في المفاوضات، إذا تمت في أي وقت. لا أدري أن كان هذا سيحدث في أي وقت». وهكذا، يتابع الخالدي، «تم التصرف بما يشكل قلب تاريخ الفلسطينيين وهويتهم وثقافتهم وعبادتهم من دون حتى مجرد التظاهر بالاستماع الى رأيهم». حرب المئة عام في الواقع هدفت، عبر غرس القلعة الصهيونية في قلب المنطقة العربية، ومدها بجميع أسباب القوة ودعم سعيها لاقتلاع الشعب الفلسطيني، إلى تأبيد السيطرة الغربية عليها، وحرمانها من حقها في تقرير المصير والوحدة والنهضة. لعب الكيان - القلعة دوراً وظيفياً مهمّاً في منظومة السيطرة الغربية، لكن العمليات لم تتمكن من إيقاف، أو حتى تخفيض، وتيرة مراكمة القدرات العسكرية والصاروخية وتطويرها في سوريا والعراق تحت النار من قبل محور المقاومة. إلتزمت النخبة السياسية - العسكرية الاسرائيلية بالتعريف الذي قدمه مؤسّس الصهيونية تيودور هرتزل بأن «دولة اليهود ستكون جزءاً من سياج الدفاع عن أوروبا في مقابل الفلسطيني، هو النجاح في اطلاق انتفاضة ثالثة شعبية ومسلحة تؤجج المواجهة في قلب فلسطين ما سيسمح، في ظروف دولية واقليمية متغيرة لغير مصلحته، في إلحاق هزيمة جديدة به وفرض انسحابه عن الضفة والقدس.

دشّن الجيش الإسرائيلي، في اطار ما أسماه «عمليات ما دون الحرب» في سوريا التي تستهدف عملية بناء وتطوير القدرات الصاروخية والعسكرية لأطراف محور المقاومة، تكتيكاً جديداً أطلق عليه الصحافيان رونين بيرغمان، صاحب كتاب «انهض واقتل أولاً» عن عمليات الموساد، وبن هوبارد، تسمية «غارات الانذار» في مقال نشر في «النيويورك تايمز». وهما أشارا في المقال الى تعمد الجيش الاسرائيلي عدم إصابة سيارة قرب الحدود السورية - اللبنانية كانت تقل 3 مقاومين من حزب الله عندما اطلق صاروخاً أولاً عليها، وأفسح المجال للمقاومين بمغادرتها وأخذ حقائبهم، قبل تدميرها بصاروخ ثان. يعترف بيرغمان وهوبارد أن غاية اللجوء إلى هذا التكتيك الجديد هي الحؤول دون

> **لعب الكيان - القلعة دوراً وظيفياً مهمّاً في منظومة السيطرة الغربية، لكن المقاومة العارمة شلّت قدرته على المبادرة بالحرب**

حرب مباشرة وشاملة مع حزب الله عبر تجنب قتل أعضائه، ويزعمان أن الصهاينة، قد استخدموه، أي التكتيك، في مناسبات عدة سابقة. القلعة التي كانت أجهزتها الأمنية والعسكرية «تنهض وتقتل اولا»، وتشن الحرب الخاطفة ضد 3 بلدان في آن واحد، وتقصف ثم تحذر، أضحت تعتمد التكيكات «غير الفتاكة» لتجنب الحرب. مفاهيم من نوع «عمليات ما دون الحرب»، و«غارات الانذار»، تذكر بتلك التي لجأت اليها ادارة أوباما، كـ «القيادة من الخلف» و«البصمة الخفيفة»، للتعمية على تراجع القدرة الأميركية على خوض الحرب بالمعنى الفعلي للكلمة، بعد التجربتين المريرتين في أفغانستان والعراق، ولتظهير التكتيكات العسكرية المتبعة باعتبارها نتاجاً لعقيدة مستجدة وليس لعجز متنام. الأنكى من ذلك بالنسبة إلى الدولة - القلعة، هو أن هذه العمليات لم تتمكن من إيقاف، أو حتى تخفيض، وتيرة مراكمة القدرات العسكرية والصاروخية وتطويرها في سوريا والعراق تحت النار من قبل محور المقاومة. إلتزمت النخبة السياسية - العسكرية الاسرائيلية بالتعريف الذي قدمه مؤسّس الصهيونية تيودور هرتزل بأن «دولة اليهود ستكون جزءاً من سياج الدفاع عن أوروبا في مقابل آسيا، قلعة متقدمة للحضارة في مواجهة البربرية». جميع حروب إسرائيل ارتبطت بالدور الوظيفي الوارد في تعريف هرتزل، وقاد هذا الأخير إلى تضخم موقع النخبة العسكرية التي تتحكم لدرجة كبيرة بقرارتها الاستراتيجية الأساسية، وهو ما كان باتريك تايلر قد أشار إليه في كتابه الملفت «اسرائيل القلعة. قصة النخبة العسكرية التي تدير هذا البلد وسبب عجزها عن صنع السلام». لكن هذا الجيش «الذي يمتلك دولة»، كما كان يقال في سبعينات القرن الماضي، يقوم بكل ما باستطاعته لعدم خوض حرب جديدة. فحتى الاغتيالات التي يلجأ إليها، ومعه الموساد، والتي تستهدف عناصر وكوادر وحتى قادة قوى المقاومة، هي في الحقيقة نمط آخر من الحرب، هجينة أو لامتوازية، يتم اللجوء إليها كبديل عن الحرب المباشرة والشاملة. لكن هذا النمط من الحرب لم يكن له أي تأثير جدي على مسار التغير المستمر في الموازين لمصلحة قوى المقاومة وتعاظم قدراتها الرادعة لأي عدوان إسرائيلي واسع. وقّف هذا المسار يتطلب خوض حرب كبرى تقلب الطاولة وتغير قواعد اللعبة، وهو ما تبدو القلعة أعجز عن القيام به أكثر من أي زمن مضى. تحوّل آخر غاية في الخطورة بالنسبة إلى القلعة العاجزة، هو تسارع انحدار الهيمنة الغربية التي أسست لخدمتها. سبادر بعضهم للإشارة إلى العلاقات الممتازة بين الصين وروسيا من جهة، وإسرائيل من جهة أخرى. غير أن الطابع العضوي لعلاقتها بالولايات المتحدة يغيب عن تلك التي تجمعها بالبلدين المذكورين. ليس سراً أن إحدى القضايا التي تطرّق إليها بومبيو خلال زيارته الأخيرة للكيان، كانت ضرورة الحد من الاستثمارات الصينية فيه، وهو طلب أميركي غير جديد، وقررت إسرائيل البدء بتلبيته. الصراع الصيني - الأميركي المتصاعد، سيجبر اسرائيل على حسم خياراتها والاصطفاف، من دون أدنى شك وبوضوح، خلف الولايات المتحدة، ما سيدفع الصين بدورها إلى اتخاذ مواقف أكثر جرأة حيال الحرب المديدة الجارية في منطقتنا، ستسفيد منها أطراف محور المقاومة، وكلما احتدم هذا الصراع، وازداد الاستقطاب الدولي بفعله، كلما سنح ذلك لهذه الأطراف بأن تعزّز علاقاتها مع القوى غير الغربية الصاعدة، وفي مقدمها الصين. نقطة الضعف الرئيسية في هذا المشهد، الإيجابي إجمالاً، بالنسبة إلى قضية الصراع مع إسرائيل، على رغم الأهوال والكوارث التي أصابت المنطقة، هي الوضع الفلسطيني نتيجة استمرار التنسيق الأمني بين السلطة الفلسطينية واسرائيل. وقف هذا التنسيق وحده كفيل بإطلاق المارد من القمقم الذي حُشر فيه وتفجير انتفاضة ثالثة في سياق إقليمي ودولي مؤات، على عكس الانتفاضتين الأولى والثانية. الخلاصة الأهم من مجمل ما تقدّم، أن إسرائيل اليوم، وبالرغم من الدعم اللامحدود الذي تحصل عليه من ادارة ترامب، أضعف من السابق، وداعميها كذلك، وتراجع قدرات الطرف الأقوى هو الشرط الرئيسي الذي يفسح المجال لتحقيق الانتصارات.